زيارة غير متوقعة

" قصة واحدة "

هيفاء شرف

الكتاب: زيارة غير متوقعة

الكاتب: هيفاء شرف

الطبعة الأولى: ٢٠١٧

الناشر: دار هدوء للنشر

جميع الحقوق محفوظة

هدوء للنشر والطباعة والتوزيع

برج آدم ط٢ ـ مقابل الفرن الألي ـ السويداء ـ سوريا

هاتف: 00963-16-210584

خلوي: 0955470048

المشرف العام: فوّاز عزّام

Facebook : هدوء للنشر والطباعة والتوزيع

ايميل التحرير: fawazazzam@**hotmail.com**

عتبة

.. هكذا القصةُ كمفهومٍ فنيَّ – ليس تعريفاً – في تاريخ الأدب.. تتضمّن أشكالَ القصِّ كلَّها.. القصّةُ القصيرةُ، والطويلة.. القصّةُ اللّحظة.. إلى الرواية القصيرة أو القصة الطويلة (النوفيلا/NOVELLA) والرواية (النُّوفل/ NOVEL) والقصّة السوداء، حفيدةُ القصّة البوليسيّة في الغرب – تختلف عنها أنَّ مؤلِّفَها بطلٌ فيها - .. والقصّة " بحجم راحة اليد" في اليابان مثلاً و القصّة الومضة، والصّادمة... و القصة التّجلّي أو القصة المنبسطة/ FLAT STORY/ كما تقول هالي برنت /HALLIE BURNETT/

يُقال إنَّ كلاً منّا يمكنه أن يكتب قصّتَه، فكيف لو كانت قصةً جميلة؟

القصة كالذرّة تَختزلُ جوهرَ الكائن تماماً..

قصّتُنا هذه.. وُفِّقت المؤلّفة بالْتقاط النّبرة العامّة للقصّة، أو النّغمة المناسبة – كما يقول تشيخوف-، فالنغمةُ روحُ القصّة..

بدأت القصة نبرة التساؤلات.. تساؤلات الإنسان أمام دراما وجوده، تساؤلات الشك في اليقينيات، إنها تساؤلات الوعي والقلق فهل تنلْ أجوبة الحكمة وخلاصة الوجود؟!

عصفورٌ في قفص، هل يُغرد؟ أم يبحث عن فضائه..

في القصة بعض شذرات من فلسفة، لا تهرب من واقعٍ ظالمٍ مظلمٍ، لكن تحاوره بأسلحة القص، والبوح، الذي استطاعت المؤلفة أن تنقذه من الاسترسال، الذي لا تحتمله القصة القصيرة..

إننا محكومون بين بحث جلجامش ومحدودية آخيل.. محكومون بالتطهر الوجودي القصصي..

"زيارة غير متوقعة" تستحق الضوء فهي لا تبحث عن غيره..!؟

الناشر

بقلم: رياض دويعر

/ كيف لهذه الذرات الرقيقة، الهشة من التراب أن تحالَ زلزالاً بعد أن كانت موطئاً لأقدامنا تمتص كل طاقات الغضب فينا..

كيف يوجد كل هذا السحر في الطبيعة بين اللطف والقسوة، وهل تلك النفوس التي تعيش فوقها تحمل ذات النقيض داخلها !!

ألسنا جزءاً من هذه الطبيعة ؟

لما لا نكون متصالحين مع ذاتنا كعناصرها..

بين شرٍ وخير، بين حقدٍ وتسامح..

أيها القراء الأعزاء: سبب شرور النفوس وحقدها الدفين غير واضح عند الكثيرين منكم مع أنكم _أعرف هذا_ تحاولون إيجاد الجواب.. سأقول لكم الآن وأنا بكامل حقيقتي أنني وجدته..

وجدت الجرح ولن أستسلم له.. وصار بإمكاننا أنا وأنتم أن نتكلم عن الأمل في ترويض الجمال في الطبيعة، طبيعتنا.. وأن نحمي أنفسنا من كامل الشرور فيها و فينا.. /

-١-

أنا كنت مثلهم أعيشُ في حقدي المعبأ بروحي كالملسوع من سم أفعى ما، كالخلد أذا رأى النور أسرع للظلام، فحتى قبس النور يؤذيه.

- كيف لا يحدث هذا !!

وكل شيء بسبب الألم،

نعم- **الألم يحرقنا من الداخل فيشعل نيران الحقد و الحسد في جسدنا لننتقم من كل الكائنات التي نلتقيها بشرا" أو كل ما تنبض فيه الحياة، نحرقه بقصد، أو بغير قصد**

قولوا لي ماذا يفعل الممتلئ بالجروح عندما يقترب أحد للمسه؟ سوف يقتله من شدة الخوف من الألم.

وهذا ما حدث لي،

لقد ابتلعني العذاب منذ الصغر.. كنت انطوائي، فوجهي قبيح وجسدي نحيل.. أتلعثم بالكلام، هذا ما جعلني محط سخرية لأقراني، ومثال سهل على لسانهم بالقبح،

فوق ذلك كله كان فقري ما يزيد مصيبتي أكثر، ملابسي دوما" مضحكة، صحيح أنها نظيفة لكنها أكبر من مقاسي لتصمد أكثر وقت ممكن، وتكبر معي كأنها جزء مني..،

تغطي أكمام ثيابي، يدي الصغيرتين لتخفي آدميتي كأني لعبة قماش، لكن جلدي يثور ويتمدد مع جسدي..

بدأ موسم الألقاب من جديد، ينعتني كل واحدٍ منهم بلقب جديد وينتصر الآن لقب "بنوكيوا" الفتى الخشبي.

- تخيلوا، ما رد فعلي على كل هذا؟

إما أن أُسحق وأصبح صرصاراً، وأستسلم وأرضخ للواقع، أو أحوّل كل البؤس الى طاقة إيجابية ـ طاقة كالبراكين تثور وتنصهر لتمنحني نوراً جديد ـ فأكثر الناجحين في حياتهم تعرضوا للضغوط فتحدوها ووصلوا للنجاح و التألق.

- لكن هل حقا" النجاح يخلق سعادة!!

لقد غيرت كل حياتي، اجتهدتُ و درست التجارة و الاقتصاد وتفوقت على جميع أقراني، أصبحت غنيا" خلال سنوات قليلة،

والتفت لمظهري فغيرت ملامح وجهي ببعض عمليات التجميل، وصنعت من جسدي، جسد هرقل الجبار، وأطلقت لساني متكلما" كأحد أولاد النبلاء أو الشعراء فقاموسهم صار بين يدي.

تعرفون رغم كل هذه الطاقة ما زلت أحمل ذلك الطفل في داخلي.. الطفل المظلوم، المنهار، الحاقد على الجميع،

لأنهم ظلموني لا أعرف كيف أعيش بينهم !!

لا أعرف أن اقترب منهم !!! لا أعرف لا أعرف فقط.

أراقبهم عن بعد.. أشعر أنهم كائنات معقدة.. لا أفهمهم أبداً.. فكل ما يحدث معهم لا يهزهم.. هم لا يدركون ربما، أو أنهم تفرّغوا من المشاعر!!

فليحترق كل من يحاول الاقتراب مني إذاً!

نعم، بقيت أراقبهم بعيون الحاسد و المتعجب و المتألم كيف لهم أن يكونوا سعداء، وأنا لا، مع أني ـ لا أخفيكم سرا"ـ أحس أنني أصبحت أفضل منهم بعشرات المرات، بل أكثر..!

-٢-

لم أظن الأمر بكل هذه البساطة، حسنا" أعترف لست مرتاحا" كثيراً، لكنه أفضل من الجلوس في أحد الشوارع وتسول شفقة الناس حتى الأصدقاء لم يحتملوني في بيتهم أكثر من عدة أيام ثم ينتهي الأمر كقطعة أثاث رثة قديمة تقبع على حريتهم و تفكيرهم، ينتظرون رميها، وإن حاولت أن أبقى غير مرئي فهذه كذبه أواسي بها ذاتي، لهذا أنا هنا في القبر.

لنقول مجازيا" أنها قبر، فهي مجرد حفرة جهزتها لنفسي.

لقد فكرت في كل الخيارات المتاحة ووجدت أن الانتحار هو الحل، رصاصة واحدة أو حبل يفي بالغرض لينتزع روحي من جسدي، آه... ـ أشعر أني أتحدث عن نزع مادتين عن بعضهما بكل بساطة.. كالزيت و الماء، والحبل أو الرصاصة هما الخط الفاصل بينهما ـ

أشعر أني غريب في هذه الحفرة، دوما" كنت أجلس على الأرض، لم تكن أرضا" تحمل مساحات كبيرة من التراب الواضح.. لقد غُطيت بالعشب المجزوز جيدا" ليتناسب مظهرها مع حجم الأموال التي أضعها لزيارة هكذا أماكن راقية،

أما الأن فأنا في حفرة ترابها غني بالحصى والحشرات وبعض الكائنات التي لا أعرفها.. ربما سامة، ولكن لا خوف علي ، فأنا هنا

أريد الموت في هذه الحفرة لقد حفرتها بنفسي الليلة الماضية. أردت أن أُدفن هنا في هذه البقعة بالذات، فلا أعتقد أن المالك الجديد لمنزلي الفاخر يحب أن يضيف قبرا" جديدا" بجانب هذه القبور الثلاثة، كانوا سوف يدفنوني في أي بقعة أخرى مع مجموعة من الموتى الذين لا أعرفهم،

تخيل أن تعيش بعد موتك مع أشخاص لا تعرفهم - هذا أمر مزعج- ، لذا الأفضل لي أن أُقتل هنا و أُدفن هنا،

على المالك الجديد احترام رغبتي بالدفن هنا شاء أم آبى، فأنا فعلت هذا عندما اشتريت المنزل و حديقته، ـ أو اذا صح التعبير غابته الممتدة على هذه الهضبة،ـ

كم كنت سعيدا" عندما رأيت القصر وغابته وسوره العالي، كانت زوجتي ما تزال على قيد الحياة هي و ابنتي ذو الأربعة أعوام، زوجتي التي منعتني من أزالت قبر المالك السابق وتركته هنا.. ـ هل كانت تعلم أنها سوف تموت في حادث سيارة هي و ابنتي وتدفن هنا.

- لو أنك الآن هنا و تخبريني عن كل تساؤلاتي، لقد تركتي خلفك ألف فرضية لحياة لا أعلمها.!!

لما أردت هجراني.. بكل بساطة أخذتي ابنتنا و رحلتي، تركتي خلفك ورقة فيها جملة واحدة اعتذر ما عدت أحتمل الحياة معك.

- ما عدتي تحتملين الحياة معي !!! ما الذي فعلته بالله عليك!

انظري الى منزلنا الشامخ و معرض السيارات الذي أمامه، وماذا عن صندوق مجوهراتك و ملابسك، أنت تعيشين معي في مغارة علي بابا، أجبينني لما تكرهيني.. كنت دائما" تشيحين بنظرك عني.

آه.. لقد أخرجتك من الجحيم يا ناكرة الجميل، عندما تزوجنا كنتِ فتاة عذبة و شفافة بالثامنة عشر مهذبة ذو قلب رحوم تستحملين المشقة و أنت مبتسمة، تخيلتك دوائي.. وأنك غيرهم تماماً .

قولي لي.. ألم تعيشي في بيت عمك بعد وفاة أبويك بمرض معدي،

كنت خادمة لزوجة عمك و أولاده الأربعة، تطبخين و تكنسين وتغسلين الملابس وتصلحينها و تنظفين كل يوم الغرف، كان عليك تقديري و الخضوع لي، أنا كنت البطل و الفارس الذي خلصك من جحيم عمك، كانوا يتذمرون حتى من لقمة عيشك، فما استحملوا فمك ليشاركهم بطعامهم،

نعم، أنا البطل في قصة حياتك، كانوا سيزوجنك لأول طارق باب حتى لو كان شيخا" هرم خصوصاً إن كان يملك المال.

لا أفهم لما تركتني أحاول تفسير الأمر لنفسي لكني لا أستطيع إلا التخبط بالذكريات.. لا أعلم لماذا تكرهيني، الشخص الشفاف يأخذ

كمل ما بقدم له دون أن يناقش فله سعة قلب وكرامة تجعله يتعفف في أصعب مراحل حياته.. ويبقى مبتسماً تبدو عليه الصلابة والالتزام إلا أنه رقيق من الداخل محب..

لكنك دمرتني، نعم أنت ملامة، فسبب كل شقائي أنت.. لطالما ابتسمت في وجهي ابتسامة ساخرة تنم عن احتقارك لي و كرهك، أعرف أنك تظنين أني قمت باستغلال وضعك وطلبت الزواج وأنا أعرف أنك ستوفقين، ولكن هذا شأنك، وكذلك الجميع هكذا يستغلون الفرص لست أنا فقط..

حسنا" كانت نيتي صافية.. هي إنقاذك، على من سأكذب الآن لقد رأيت ضعفك فخططتُ وعلمت كل شيء عنك،

ما أكثر الضمائر التي تُشترى،

دفعت بعض المال للبقال الذي في شارعكم فأخبرني كل صغيرة وكبيرة عنكم، وأن لك أربع سنين تعيشين في بيت عمك، والجميع يشتكي من وجودك هناك، تفترشين أرض المطبخ و تنامين كقطة متشردة، كنتِ بائسة دوما"، صامتة، و راضخة، فالنفوس الشفافة لا تتمرد.. إنها ترى في ذلك أثم كبير و خرق لمبادئ المجتمع..

فتزوجتك، أردتك صديقة لوحدتي، كان عليك أن تفهمي كل معاناتي و تقدري، بل تُظهري الاحترام لي و الاجلال.

كنت في بادئ الآمر حيوية، تتصرفين بطيش، مسرفة في الكلام كان عليك تعلم الاتزان فلم أشاركك تلك الحياة العشوائية ، لقد خيم الصمت بيننا كغربين ما استطعت فهمك وكيف تفكرين رغم كل محاولاتي لإسعادك..

هل تذكرين عندما اصطحبتك إلى السينما؟

لم نتحدث سوى بضع كلمات، ثم ما قبلتي بعدها كل مشاريع الخروج.. لقد عرضتني للذل وخزي و العار بقرارك هذا،

أمام خدمي، كنا كشخصين كئبين نجتمع بسبب القدر تحت سقف واحد، كلنا أراد طوق النجاة على طريقته، فحل الكره والوحدة على عالمنا.

انظري الآن..،

أنا هنا في هذه الحفرة البائسة، وأنت بجانبي ممددة في قبرك، يالسخرية القدر.. لا يُسأل أحد عما يريد، بل ينتقي القدر لنا حكايتنا و يقف ساخرا" يقول: اختاروا ولكني سأختاركم في اللحظة المناسبة.

أعلم أنك لست سعيدة لوجودي، انظري الى الجانب الأخر، لطالما تمنيت أن تُدفني هنا..

هل يمكن أن تكوني سعيدة لأنك أمام عيني و تعذبيني بكرهك لي و تعاقبيني و أنا بكل سذاجة أنفذ لك ما تطلبين.؟

انظري بدأ العرق يتصبب من وجهي و يفسد نظافة ملابسي.. الفرق بيننا أنني في كامل أناقتي ألبس القميص الكتان السكري و البنطال الأبيض وأرتدي أيضا" ساعتي الذهبية التي أهديتني إياها، وأنت بقماش أبيض و تقبعين تحت التراب صامتة،

لماذا تركتني قبل أن أعرف أسباب حقدك؟

-٣-

و ها أنا أعلنُ ثورتي وتجتاحني عاصفة من الغضب فأضرب تراب القبر بقدمي بكل قوة و ادمدم بضع كلمات بصوتٍ مخنوقٍ كئيب كأن صدري أفرغ من الهواء،

وفجأة تنهال علي بعض الأتربة من جدران الحفرة فيزيدني هذا سوءاً، فأخلع حذائي العسلي المصنوع من الجلد الطبيعي، الجوارب فما حاجة المرء للأناقة وهو حزين محطم يتمنى الموت،

نحن نتأنق لترانا عيون أحبتنا أجمل ما يكون، تخيل لو أنك تعيش لوحدك هل كنت تهتم لمظهرك!!

لا أعتقد النظافة شيء و الاهتمام بالمظهر شيء آخر.

آه صحيح أنت لم تقفي يوما" أمام مرآة، لم أسمعك حتى تغنين لحنا"

إلى هذه الدرجة كنت تعيسة!!؟

كل هذا التفكير يدفعني الى الجنون.. ما ذنبي؟

تتدفق الدماء بقوة من قلبي، إنه يتسارع، فأغمس قدمي العاريتين بتلك الحفرة كجذور الأشجار لتتغلغل في العمق، فينهار المزيد من الأتربة على جسدي.

هذا لا يكفي لكي أُدفن !!

أبدأ بتحريك المزيد، و المزيد من التراب بكفيّ العاريتين. يتمزق جلدي،

يداي تنزفان،

و تتساقط قطرات الدم على قميصي و تختلط الرمال بالدماء،

أشعر بوخز ونزيف في قدميّ.. لابد أن بعض الزجاج المتكسر أخترقها، وأنا أضغط عليها بكل قوة.

من أين أتى ذلك الزجاج.

آه، تلمع ساعتي الذهبية.. لقد كسرت زجاجها،

ما حاجتي للذهب وأنا على حافة الهاوية،

ما قيمة هذا المعدن الآن،

لا شيء... كان المال كل شيء.. المال.. و الآن هو لا شيء، يا لشقاء الإنسان يهدر العمر يجمعه، وعند جمعه يهدر المال ليجد السعادة، حَلَبة دائرية لا ننفك نركض داخلها بلا نهاية.

أرمي الساعة بكل قوة و عزيمة واشعر أن عضلات يدي تمزقت من كل الغضب الدفين.

تندفع في الهواء فيقف في طريقها القبر الذي أمامي، تقتطع بعض ذراته وتستقر فوقه.

ها هو رأسي يبدأ بالترنح من التعب فتنطلق يداي لتضرب الجدران بقوة.. ضربات متتالية، ترد الطبيعة لي غضبي و نوبات الهستيرية التي تملكتني،.ـ فكل ما تطلقه من طاقة يرتد عليك ـ

/نعم أنه قانون الطبيعة، فقيمتك بما تطلقه من نوع الطاقة التي تحبسها في ذاتك./

أهدتني الطبيعة انهيار جدران الحفرة كلها علي، نعم كلها دفعة واحدة حتى الحجارة وكأنها تقول هيا ايها البطل الجبار بضرباتك، لأرى ماذا سوف تفعل.

فما كان إلا و غشوة من الصدمة وبقيت على حالتي بضع دقائق،- دقائق لا أكثر على ما أظن-

أُزيح شعري الذي انسدل على وجهي بهدوء، بعد أن غطاه العرق والتربة، لأضيف عليه ذرات من دمائي الملطخة بيدي فيصطبغ وجهي بلون بني محمر – هكذا أحسست- .

يا للأقدار...

أنا كائن جديد عُجن من الدمار و الحقد و الهستيرية ومن غبار الأزمان، من التراب الذي داسته مئات الأقدام..

أنا الأن تحته.

نعم كلنا شعرَ في مراحل من حياته أنه غبار، في لحظات يرتفع غبار أرواحنا و يسافر عبر الأزمان، ليدخل في عاصفة و رحلة داخلية مع روحه، وحده داخل هذه العاصفة، لا تعرف متى دخلتها و متى استنشقت غبارها ومتى أُعميت عيناك، وحتى متى تنتهي – الشيء الوحيد المؤكد مهما طال الأمر سوف ينتهي، هذا ما تهدينا إياه الحياة، كل شيء الى الزوال، نهاية سعيدة أم تعيسة.. هذا ليس من شأن الطبيعة، شأنها ابتلاعنا داخل قوانينها، إن كنا واعين لذلك أم لا، هي تطبق و نحن ننفذ.

لقد دفنت جسدي و أنا حي، جسدي في التراب ككل القبور التي حولي لكن روحي ما زالت في جسدي عكسهم، ما زالت في وعائي المادي.. أتخبط كالمذعور من وجودها فهو الموت الآن!!.

يا لسخفي..

منذ ساعات كنت أحفر قبري واستقريت فيه منذ نصف ساعة فقط لأجرب شعور الموت ، وما أن جربته حتى خفت و ذعرت و بدأت بالصراخ علّ أحد يسمعني من جيراني و أنا أقبع هنا في أعلى تل بالمنطقة حيث يقف قصري الفاخر ومن حوله غابته،

أعيش كإقطاعي.. لطالما اختلستُ النظر بناظوري من أعلى غرفة في قصري.. كانت مصممة لمشاهدة النجوم في السماء، لكني

استخدمتها لمراقبة الجيران.. كلٍّ في قصره على تلال متفرقة، كنت سعيدا" في بعدهم عني أما الآن اتمنى لو كنت أعيش في غرفة والجميع من حولي

كانوا سمع٤وا صرخاتي و أنقذوني الآن،

/لم أتوقع أن أتمنى يوما" قربكم وفي أخر لحظات حياتي./

-٤-

أبقى طيلة الوقت مشدود الذهن مترقب لكل ما يحدث، الأشجار الكثيفة تتشابك مع بعضها لتبعث شعور وكأن عدة عيون تراقبني من خلفها،

أسمع أصوات أقدام أو ربما سقوط بعض أغصان الأشجار. التفت يمينا" وشمالا" لكني لا أرى شيء، وكيف لي أن أرى !!

لا أستطيع أن أرى ما خلفي، أنا عالق و متردد و خائف وليس في يدي سلاح أو بندقية، ولا أستطيع الركض أو الحركة حتى،

سأكون صيداً سهلاً لأي كائن ضعيف كان أم قوي. أي حشرة سامة تستطيع قتلي.

سامة !! ماذا لو كانت هناك أفعى بالتأكيد سوف تأتي من خلفي و تغرس أنيابها في رأسي، وما أن تخطر تلك الفكرة لي، حتى تجتاحني موجة من الخوف العارم.. أنا مرعوب تماماً و خدْر و يتدفق الدم الى رأسي بقوة،

تزداد حساسية أذني للأصوات التي من حولي، أصوات موجودة أو واهمة.. وفجأة أسمع صوت قادم أغمض عيناي، وأنتظر لحظة الانقضاض والفناء، لكن لا يحدث شيء..

يزداد الجو برودة بعد اقتراب ساعات المغيب، لا أعرف كم سوف أمكث هنا ومتى أفارق الحياة، إن لم يجدني أحد قد أستغرق أياماً لأموت؟

إذا" من الأفضل أن يأتي كائن ما ويقوم بدوره و يقتلني – نعم كلنا أصحاب أدوار منظمة في الحياة، شئنا أم أبينا...

دوري أن أنتظر الموت من قادمٍ مهمته طبعاً الإنهاء على حياتي،

ففي حياتنا هناك دوما" شروق يتبعه الغروب مهما حاولنا لن نغير أقدارنا، إن كانت خطوات هروبنا سريعة أو بطيئة لن نغير شيء.

بكل هدوء وقناعة استسلم

هذه أول مرة فيها أستسلم ، يا للعجائب

أنا أستسلم بعد أن كنت كموقد النار.. طاقة من الاشتعال فحرقت كل أوقاتي و نسيت أن استمتع بالحياة و بساطتها.. كل شيء كان عليه أن يكون مثاليا" بالقوة، والآن أنا أستسلم.

في كثير من اللحظات لا تعرف ذاتك، قد تفهم كل العالم، ولا تعرف ذاتك جيدا".

يسترخي جسدي، و أتذكر كل لحظات حياتي كأحلام صيفية. يمر الوقت،

ضحكات ابنتي..

و زوجتي كانت دوما" تقف هنا و تراقب الغابة

ماذا كانت تحب بهذه الغابة، المخيفة المرعبة!

أستغرب كيف تختلط الرقة بقوة القلب !

إنها غابة مجهولة

الجميع يخاف من المجهول كيف أحببت هذا المكان !!!

كنتِ تجلسين فيه بالساعات ترتدين فستانا" أخضر فاتح ذو أزرار بيضاء و أكمام قصيرة تجلسين على ترابه هكذا، كأن هذا التراب سجادا" مخملي.. لم تكوني تستمعي الى أي موسيقا ! كيف لم تشعري بالفراغ، و أنا كنت أتي الى هنا مرتدي بجامتي الرياضية و قبعتي وحذائي الرياضي الضخم وأضع السماعات لأستمع للموسيقا الصاخبة،

وأنت تجلسين على الارض تفترشين التراب سجاداً كما قلت و تضعين أنامل قدميك في الأرض دون حذاء،

كيف لهذه الأنامل الرقيقة أن تنخرط مع كل التراب الخشن ولم تخدش!!

أنا الأن مثلك..

الفارق أنك كنتِ تفترشين التراب وأنا التراب يفترشني.. أني داخله رغما" عني.

كنت دوما" تقولين أجمل الأشياء هي البسيطة غير المعقدة التي تنبع من الصدق للذات.

ها أنا بأكبر مأزق في حياتي، تحيط بي جميع عقدي، محاصرٌ بها مدركاً أن الأمر ليس بالبسيط بل إنني في مأزق حقيقي بالفعل.

تزداد البرودة بمغيب الشمس التي تنغمس بالسحاب كقطعة فولاذ في القطن تشق طريقها بكل قوة وثبات نحو التلاشي، لا تخاف الرحيل بينما يشتعل السحاب فيه وكأنه يمتص كل حرارتها ليطفئها،

حل الظلام.. صوت الرياح بين أشجار الصنوبر كبوق الهنود يحتفل بقدوم الليل، ويقول لي: أنا المسيطر و سيد الأزمان..

أحس بكل تفصيل صغير للألم المسيطر على جسدي، قدمي. إن عظامي تُسحق على أغلب الظن، لم أذق من قبل مثل هذا الألم كله.. ومن منا يتخيل ميتته وشكل حضورها؟

قد تتوقع كل شيء إلا طريقة ميتتك و نهايتك، لن تخطر على بالك أبداً..

فجأة ترتطم صخرة أخرى فوق الصخور.. هكذا تتدحرج لتستقر فوق الصخور المستقرة علي لتزيد عذابي وتهز جسدي كصاعقة،

ما عدت أصرخ أو أنادي منذ فترة، بل اكتفيتُ بسماع صوت أسناني تصطك في فمي بشكل لا إرادي..

الهواء يحاول بين لحظة وأخرى تحريك خصلات شعري المتناثرة على جبهتي، أسلّم نفسي لمصيري و أترك جسدي يمتزج بحبات التراب هذه المرة ليس رغما" عني بل بكل إرادتي..

وكأن سلاماً يجتاحني، ويقلب المشهد تماماً..

أحس بحنان الأرض الأن.. أشعر أن الغابة لن تؤذيني ، و أسمع بدل أصوات الجحيم و الخوف و الرعب أغاني عذبة و سمفونية من حديث الرياح و أوراق الأشجار،

الظلام يسيطر على المكان.. وأضواء القصور المحيطة وقصري بعيدة بما يكفي كي لا تؤثر علي .

- علمت الأن لما كنتِ تجلسين هنا وحدك ولما تمنيت أمامي أن يكون قبرك هنا.

إني حقا" أشعر كأني جزء منها أطوف بمشاعري في ثناياها، لم ينتابني هذا الشعور العذب يوما" وانا في صراعي المستمر مع الحياة، دوما" كنت أضرب الأرض تحت قدماي معلنا" قدومي بكل تكبر و تجبر.. الأن أذوب بين ذرات التراب فيها.. أتصالح معها هذا لأني أهبها دون غيرها .. روحي.. كنت أظن أن تجبري و تكبري في وجه الحياة سيمنحني

السعادة أما الآن صرت على ثقة بأن التسليم .. الهدوء.. التماهي .. هو راحتي التي أبحث عنها.

-٥-

آآآه – نحن كالعصافير وكلٌ له قفص!! قلت لنفسي

- من وضع القفص غير خيالك يا عصفور

سمعت صوتا" يحدثني، فتحت عيني و رفعت نظري فرأيت رجلا " قصير القامة في وجهه تعالٍ وكبر و في عينيه قسوة. يدمدم حاكاً لحيته تارة وتارة أخرى محركا" طربوشه،

ثيابه أنيقة كأحد نبلاء المجتمع، يجلس على صخرة فوق قبري ويمسك بيده اليمنى ساعة الجيب خاصته.. يلمعها بياقة ملابسه، وفجأة التقط من الأسفل ساعتي الذهبية و رماني بها،

- تقول نحن كالعصافير وكلٌ له قفص !!!

قل لي من وضع القفص غير خيالك يا عصفور، تريد أمرا" تحرك ولا تضع الحجج و تبرر

لو شاهدته قبل ذلك لكنت خفت كثيرا" لكن الآن لا شيء يخيفني،

إنه الرجل في الصورة الكبيرة في صالون القصر، إنه المالك السابق لهذا القصر، وها هو قبره أمامي .

- أسف لقد أزعجتك ربما، رميتُ الساعة على قبرك في لحظة غضب .

ينفض الغبار عن طربوشه ثم يضعه على رأسه من جديد

- لا بأس كنت أنتظرك حتى و لو لم ترمي بالساعة.. أنا أراقبك و أنتظر قدومك .
- هل توقعتَ قدومي !!

يجيبني بكل هدوء وكأن نبرة صوته تقاس في ميزان:

- نعم لقد تأخرت لكنك الأن هنا، وهو الأهم، حسنا" لا أخفيك أمرا" توقعت أن تأتي بكل جسدك تحت التراب، أو بكل جسدك خارج التراب ونتحدث، ليس نصفه هنا و هناك، لكن هذا لا بأس فيه ما دمت قد واجهت مخاوفك بنصف جسد و نصف روح أو بكل جسدك خارج التراب، فالأفعال و الانجازات لا تقاس بالشكل بل بالمضمون، المهم أن أُتم مهمتي التي أوكلت لي .

حسنا" أنا جاهز لكل شيء، لكني لا أعرف لما أنا بالذات لهذا القدر، أما كان علي أن أكون بدل أحد جيراني السعداء فالحياة لم تثقل كاهلهم

كم كانوا سعداء،

لقد شقيت كثيرا" بالعمل و التفكير و تزوجت و أنجبت طفلة جميلة لكني بقيت أشعر أن هناك جزء ناقص لا أعرف كيف أظهر حبي لهم،

لما أنا غير الأخرين، لما الجميع سعداء عداي؟؟؟

- سعداء !

أنت لا ترى سوى القشور الخارجية

لا ترى العمق،

هذه هي مشكلتك في الحياة، ترى اللمعان فتمشي ورائه دون تفكير، لا تسأل ما الذي يناسبك، تستنسخ حياة غيرك، لست في قلوبهم .

بقي هذا السؤال عالق في ذهنك لسنوات، يحرق قلبك ويذيب عقلك من كثرة التفكير وتتخبط روحك فيه، حتى عينيك تعبت من مراقبة البشر والتساؤل كيف يعيشون !!! قصور جيرانك حولتها الى مسرح تتجسس فيها عليهم .

أضع كفيّ على وجهي بسرعة لأخفي عينيّ.. أضغط عليهما بكل قوة، أبقى لثوانٍ على هذا الوضع ومن ثم أفتحهما فتجتاح المنطقة طبقة من الدخان اللطيف،

يتماوج عقلي باللاوعي بين ذرات الدخان ليختفي كل شيء من حولي وفجأة يتجسد أمامي أشكالٌ من الدخان،

فتاة جميلة، طويلة، ذي خصر نحيل تتمايل حاملة بيدها صحوناً، يبدأ كل شيء بالوضوح أكثر

أنها جارتنا الذكية المثقفة زوجة التاجر الغني ذو القصر الفخم .

تضع الصحون على الطاولة، يظهر زوجها من العدم جالسا" على كرسي أنيق أمام الطاولة .

أشاهدهما و كأني قطعه من أثاثهم لا يلحظون و جودي، يدس يده في جيبه و يخرج علبة فيها قطعة من المجوهرات، يضعها على الطاولة دون أي كلمة أو تغير في ملامح وجهه

تتشكره، تسرع الخطى لوضع صحون العشاء، توقفها المرآة المذهبة في الصالون الكبير تتفحص وجهها بدقة كما يتفحص الصائغ قطعة الألماس النفيسة من أي خلل، عليها أن تبقى شابة لو كلفها الأمر بعض العمليات، هي غير واثقة بحبه،

يحبها لشكلها الذي تحافظ على تجميله وتبالغ في ذلك لأجله.

كان عشاءهم رسميا" ترمقه بين الحين والأخر بنظرات و ابتسامات متصنعة.

وضعه ليس أفضل منها.. لقد تحول الى إنسان جشع لا يهمه في هذه الدنيا سوى المظاهر.. سعادته باقتناء الأشياء.. كل شيء تحت سيطرته، أنه يحرك الأمور بخيوط خفية.. ماله و زوجته الجميلة، إنه سيد المسرح للحياة لا يحب إلا من يقدر على السيطرة عليه بقوانين صارمة،.. يجوز هذا و ذلك ممنوع، درس كل الخطوات بدقة تامة، ونسي أن يعيش الحياة وهو يبحث عنها، فمر عمره هباء، كما من ينحت بالرمال المتحركة أضاع السعادة في طريقه للبحث عنها .

يلوح النبيل أو الرجل القصير بيده لتختفي الخيالات و صور جاري التاجر، لينتقل الى بيت جاري الثاني، ينظر الى عيني مباشرة و يقول أنتم البشر متشابهون كنتم أغنياء أو فقراء،

لنكمل جولتنا و نرى أيضا" من تنزف روحه جروحا" وهو جثة تائهة في هذه الحياة، فاذا كنت تتحرك فليس معناه أنك تتنفس الحياة بصورة جميلة و مشرقة .

نحن الأن في بيت جارك الرسام .

-كنت أحسده سابقاً وأنا أشاهده بالمنظار- حدثت نفسي كثيراً، إنه ناجح جدا".. صوره تملأ المجلات والجرائد ونشرات الأخبار تتحدث عنه، ما الذي ينقصه! لا شيء... الجميع يحبه .

يقاطع أفكاري الجار النبيل ويقول: عذرا" نحن الأن في عالمي وهنا لا يوجد للأفكار أو الحديث مع الذات وقت، أنا أسمعك جيدا" حتى

وأنت صامت .. أعرف بما تفكر، الذى أسمح لنفسي أن أقوله لك أنك أخرق كبير،

قل لي متى كانت الشهرة لوحدها تجلب السعادة، شاهد ماذا يفعل.

أترقب في إمعان جاري المشهور، يحاول النوم وفجأة ينهض من سريره بسرعة وهو بمنامته زرقاء اللون.. يفتح أحد الدروج و يتناول مسدسا."

بحق السماء !!! بما يفكر أصيح،

يومئ لي الرجل النبيل بأن أشاهد فقط، والتزم الصمت.

يقوم بحشوه بالرصاص و يوجهه إلى صدغه يبقى هكذا عدة دقائق وهو يتنفس كمحرك بخاري، ينفجر غضبا" ويتجه إلى النافذة ويبدأ بإطلاق الرصاص بجنون،

يجثو على ركبتيه ويبدأ بالنحيب كالأطفال لا يتوقف حتى تتورم عينيه و يستسلم جسده للأرض و ينام.

أومئ برأسي لنبيل أنني فهمت الآن،

كنت أظنه سابقا" يحب الصيد في الليل، حتى أني زرته فوجدت جدران بيته مليئة بالحيوانات المحنطة.

ضحك النبيل و قال لي: نعم هذا ليخفي محاولات التخلص من حياته البائسة، لقد أحتلت الكآبة والسوداوية قلبه، رغم كل العيون التي تراقبه وتهتم به إلا أن قلبه مكسور،

كرّس كل حياته للعمل كالآلات موجه لشيء واحد، لا تعرف أن تعيش فتبحث عن الحياة لتسرق منها الأيام وهي لا تشعر، إنها الأنانية، حتى إذا وجدت روحا" تسعدك ستطردها فورا" خوفا" من مقاسمتها نجاحك و خلودك.... يبحث عن الخلود في صفحات كتاب الزمان ولا يعلم أن كل شيء يُبنى على الإيمان والروح

المادة لا تتعلق بالخالد ولا تكمّله،

أنظر الى الأهرامات بقيت خالدة لأنهم أمنوا بحياتهم بعد الموت فيها فكانت قبورهم حب" خالد" فجمالها بما حملته من معاني وذكريات .... لقد هدم نفسه بنفسه و جعلها تُعلّق بالفراغ، وخاف التغير فيفقد ما يسبب له بعض الإبداع،

فقد حياته وذاته بكذبة الشهرة و إثبات الذات و الآن أدرك هذا وصارت السعادة مستحيلة، وإنهاء الحياة هدف..

أما جارك الثالث صاحب السلطة والعضلات المفتولة، فأنت تحسده على الأصدقاء الكثر من حوله، لا تهرب من الإجابة لقد شاهدتك تراقبه كثيرا" بعين الحسد تتمنى أن تعيش مكانه محاطاً بكل هذا العدد من الناس.

- نعم هذا صحيح لديه جسد رائع، وسلطة و قوة لا يستهان بها .
- نعم، نعم لكنه أكثر الاشخاص وحده، فالجميع يصادقه لسلطته وماله وقوته، وليس لشخصه..

يتمنى هذا الرجل أن تكون هناك ذكريات حقيقية له، ليست مصطنعة، الذكريات تغذي الروح كالشمس الصيفية.. تدفء القلب تقوّم الحياة،

أه صحيح إن أصدقاءك أو ما تسميهم أصدقاء، لو صح القول قل عنهم معارف، المهم تخلوا عنك عندما عرفوا إفلاسك و بيع هذا المنزل !!

اقاطعه..

- عذرا" لكن بما أنك تتحدث عن الذكريات لما أراك ولا أستطيع رؤية زوجتي وابنتي؟
- لا تستعجل الأمور، أن تراني فهذا أمر طبيعي، أنا الحارس لهذه المنطقة فأنا المالك السابق، واجبي يتحتم انتظارك لتأتي و تأخذ مكاني وأكمل رحلتي،

أتعلم، انتظرتك كثيرا"، لقد حولوا قصري بعد مماتي إلى متحف بسبب وجود كل تلك القطع الفنية المزخرفة، وقفتْ شامخة من كل أصقاع العالم، و كأن العالم يحتفل عندي، توفيت و بقيت هي تعذب روحي، أني فقدت الأمل بوصل مالك جديد لمنزلي و يحررني، كان على أحدهم استلام هذا

المنزل وأن يغرق في الفراغ بدلا" مني، وهذا لا يحدث إلا للذين يعلقون بين الموت و الحياة، للأشخاص الذين هناك أمور ما زالت عالقة بأذهانهم تعذبهم و تعذب غيرهم، أنا كنت جشعا" أجمع كل الاشياء، أصبحت عبدا" لها فعلقت .

قل لي ما نفع دور العبادة إن كانت مزينة و مزخرفة بدون الصالحين، سعادتك تكمن داخلك.. الأشياء لا قيمة لها إلا بمنحنا عطائها، وأهميتها في تسهيل حياتنا .

قل لي أنت الآن ميت فما نفع الساعة الذهبية أو القداحة الثمينة في جيبك !!

أنت شبه ميت، ارحل الى المريخ فهل هناك حاجه إلى هاتفك النقال، لو بمقدوري العودة لأعيش المحبة بدل الخوف من الفقدان بدل الجشع..

خفت الهدوء، خفت من الناس، خفت من ظهور..

خوفي بأن علي دائما" التفوق لو حتى على حساب سعادتي .

- أريد أن أرى زوجتي لا أريد شيئا . "
- هذا يعتمد عليك ، وعلى طريقة تفكيرك.. محبة كانت أم حقد .

ينفض بعض الترب الذي التصق على ملابسه.. وقف متثاقلا"، تنهد بعمق، و دون أن يرفع نظره قال:

- أتعرف ما هو التعقل !!!

هو أن تعيش حياتك الحالية بناءً على أفكار المجتمع التي وضعها قبلك أشخاص عاشوا قبل الآف السنين .

ثم توارى عن الأنظار بين أشجار الغابة،

وغلف الصمت المكان حتى الأشجار والرياح غدت ساكنة لا تصدر أي صوت.. تنتظر قراري وماذا سأفعل.

-٦-

تسرح عيناي في عمق الغابة وتطالبني روحي بلقائها، هناك مسائل عالقة لا أعرفها، استرخي و استمع لصوت روحي ما لذي تريده.

أتعلمون إن ما تكلمك روحك به هو طريقك نحو الحياة الحقيقية، لو كنت جبلا" من الصمود أمام إرادتها سوف تقنعك في يوم من الأيام أنها على حق..

ها هي أراها تجلس تحت أحد الأشجار مرتدية فستانها الأخضر الفاتح ذو الأزرار البيضاء، و الأكمام القصيرة، ما أجمل هدوئها و شعرها البني ينسدل على كتفيها و عيناها السماويتان تحدقان بالغابة..

تغرس أنامل قدميها بذرات التراب بكل لطف كأنها تستمد منها القوة بكل رقة كجذور الأشجار..

رقيقة وبيضاء و قوية، تزيح خصلات شعرها بأناملها الفضية.. أول مرة أرها بكل هذا الجمال، و ألاحظ بشرتها البيضاء الصافية، أحاول النهوض من القبر وبكل خفة أنهض و أبدأ المشي يعتريني شعور جميل.. أشعر أن كل ذرة تتحدث معي و تمنحني الحنان، وكأنها جزء مني.. كأنها تخاطبني:

- لا تخف.. الخوف هو المجهول، والأن أنت تدرك الأمور لا تفكر بذاتك فقط بل بكل شيء حولك وكأن كل شيء جزء منك.

أتوجه الى زوجتي و أجلس بجانبها، أسند ظهري إلى جذع الشجرة، ابتسم لها..

هذه أول مرة أشعر أني قريب من عالمها، أشعر أنه لا يوجد بيننا حواجز و حسابات وكأننا واحد لا أكثر.. أشعر بما تشعر به وهي أيضا" تبادلني الابتسامة العارفة بما يجول في خاطري.

- أهلا" بك .

أشاهد ابنتي تركض بين أشجار الصنوبر و العصافير من حولها كل شيء منير مضيء هنا،

الهواء ألطف بكثير و منعش، و الألوان أزهى، كل شيء له موجات عذبة خفيفة، بدون أن التفت إلى زوجتي أقول لها: ها هي ابنتنا سعيدة كالأيام الماضية تركض.. لم أعلم أن السعادة هي تلك اللحظات، كم كنت متصلباً، مغلقاً.

- عفوا" أنا لا أعرفك وهذه الفتاة ليست ابنتي، فأنا لا أذكر أن لدي ابنة، مع أني أحب تلك الفتاة لكنها ليست ابنتي على ما أظن.

أنظر اليها مستغرباً.

- ألا تعرفيني، ألا تذكرين شيء، أنت هنا منذ عدة شهور فقط. لم يتسن لك أن تنسي بهذه السرعة
- لا – لا اذكر شيء متى وكيف، لا أذكر غير أني عالقة بهذا الفراغ، و أكثر شيء أتذكره هو تلك الندبة - تشير الى معصمها- هنا لا اتذكر غير القليل، ربما أمس، على سبيل المثال ندبتي هذه أصبحت تنزف كثيرا" وآلمتني بشدة كخنجر يغرس و توسعت.. لا أعلم ما سببها ومن أين أتت، كل الذي أعرفه أنها تذكرني بخطأ ما... شيء فعلته لشخص من غير قصد آلمته وكلما تألم أتعذب أنا هنا،

أتعلم لا أعرف لما يكرهني أو هو حاقد علي !! لا أحد منا كامل.. رغم كل هذا العذاب أنا أحبه و أسامحه، ليته يعلم.. لا توجد أشياء كاملة بالحياة كان عليه التغلب على خوفه.. أن يعيش حياته و قوانينه.. أن يعيش على طبيعته، سوف أبقى عالقة بالفراغ والعذاب حتى يدرك هذه الحقيقة.. كم أود أن أقول له كيف يجب أن يبحث عن الحب، بل كيف عليه تحطيم الجدران التي في قلبه هناك يجد الحب في داخله فيمنحه، بدلا" من الجري خلف الناس ليجده، ويبقى خائفاً، عليه ان يكون منارة للحب.

اطأطأ رأسي أجلس بجانبها عدة دقائق دون أي كلمة و هي كذلك،

أقف و كلي حزم لمغادرة هذا المكان، علي العودة و مواجهة ذاتي قبل الآخرين...

وأنا ذاهب يوقفني صوتها العذب الرقيق:

- أيّاً كان الآمر لا تلتفت الى الخلف لأنك سوف تعلق في هذا الفراغ الى الأبد، الحياة هنا بسيطة لا أحد يؤذي أحد لكننا لا نذكر شيء، نعيش يومنا بدون أي تحديات، نعيش الاستسلام.

أتسمر في مكاني... هل أبقى وأعيش السلام، أم أعود و أواجه كل المصائب و العقد، أحررها من الفراغ.

أشعر أن هذا المكان يجذبني إليه و يناديني ولا استطيع أن أقاوم راحته،

أتذكر زوجتي تماماً.. كانت سابقا" تحب الحياة و لا تحب أن تعلق في الفراغ .

أعتزم الرحيل و أجري الى قبري إنه أمامي، لكني أشعر أني قطعت مسافة كبيرة للوصول إليه..

إنها آخر الحروب.. لا مجال للتراجع علي الانتصار،

وأخيرا" أجلس في الحفرة و أفتح عيناي، الشمس بدأت بالشروق، و جسدي بدأ بالاستسلام للموت.. إنه منهك فارغ الطاقة كأنه جوف خالٍ من الحياة، ما عاد لي الكثير من الوقت، علي إخراج نفسي من تلك المصيبة.. الحياة أجمل، وأثمن من الضياع والتخبط، لكن لا شيء معي أنا فعلا" كمن علق بالمريخ، بالمريخ!!

أتذكر أن النبيل قال لي ليس لديك سوى قداحة في جيبك، أتناولها من جيب قميصي وأشعل النار في الحشائش التي بقربي، أعلم أنه ضرب من الجنون لكن لا حل أخر عندي، أحيانا" عليك المجازفة بكل شيء لتصل الى الحل و تنقذ ذاتك..

ترتفع ألسنة النار و خيوط الدخان في المكان، ينتبه الجيران لها، أخر شيء تتمناه أن يشب حريقٌ و منزلك وسط الغابة، كنا لا نتدخل بشؤون بعض أبدا"، لكن عند إشعال سيجارة أو نار مخيم صغيرة نكون جميعنا متنبهين و مترقبين كجندي في أحد معارك الجبهة، لأن النتيجة الوحيدة للنار الخاطئة هي الموت للجميع في هكذا مكان،

.

.

وبسرعة يأتون بالفعل،

و يتم انقاذي....